

• دريافت ١٤٠١/٠٦/١٢

• تأييد ١٤٠١/٠٩/٠٨

## تمثّلات الصراع الحضاري وأزمة الهوية الثقافية في رواية «كم بدت السماء قريبة» للكاتبة العراقية بتول الخصيري

جمال طالبی قره قشلاقي\*

### الملخص

يمثل الصراع الحضاري بين الثقافات الغربية والشرقية إشكالية مهمة سببت أزمة هوياتية في كثير من المجتمعات الإنسانية خاصة الشرقية منها. استطاع بعض الروائيين العرب أن يجسّدوا هذا الصراع المرير بين الحضارتين الغربية والشرقية وهي موضوع العلاقة بين الأنا والآخر. وعلى الرغم من أنّ نخبة من الكتاب العرب قد سبقوا إلى طرح هذه الإشكالية الحضارية في كتاباتهم، إلا أنّ رواية «كم بدت السماء قريبة» لبَتول الخصيري من الإبداعات التي عرضت لهذه القضية بشكل موسع، فقد عالجتها بدقة وعمق كبيرين في مستواه الحضاري (الفكري) من خلال توضيح الجانب المادي والاجتماعي والنفسي لسلوك الشخصيات في الرواية، وأخذت يكشف النقاب عن الصراع الجوهرى بين الحضارتين. تهدف هذه الورقة البحثية بالاعتماد على منهج النقد الثقافي ومقارنته الوصفية والتحليلية إلى تسليط الضوء على موضوع الصراع الحضاري في تلك الرواية من خلال بعض العيّنات النصية. يمثل الأب في هذه الرواية رمزاً للحضارة العربية الإسلامية، وتمثّل الأم رمزاً للحضارة الغربية، وقد احتارت طفلتهما بين هذا الصراع وأصببت بأزمة هوياتية سببت تذبذبها السلوكي في العادات والتقاليد، فلا تعرف لمن يكن ولاءها! ومن أهمّ ما توصلت إليه الدراسة أنّ البناء السردى في هذه الرواية قام على محورية الأنا والآخر التي سيطرت على كلّ العلاقات فيه، إذ كانت العلاقة بينهما علاقة صراع دائم ومستمرّ لم تؤد إلى تواصل الحضارتين والتفاعل بينهما، بل أدت إلى خلق شخصية مرتبكة وضائعة متمثلة في طفلتهما، بحيث فقدت هويتهما، ولمتستطع أن تحدّد انتمائها بشكل دقيق، بل بقيت تعيش على تذبذب في سلوكياتها كما أنّها لمتقدر أن تحدد ولاءها بكلّ من الحضارتين.

**الكلمات الرئيسية:** الرواية المعاصرة، الصراع الحضاري، الهوية، بتول الخصيري، رواية كم بدت السماء قريبة

## المقدمة

يعدّ الصراع الحضاري وما ارتبط به من حديث عن جدلية الأنا والآخر من الإشكاليات الحديثة التي واجهت الإنسان المعاصر وهو يبحث عن انتمائه الوجودي وما يحقق تميّزه الذاتي وخصوصياته الثقافية. وقد سعى الروائيون العرب المعاصرون إلى أن يعطوا لهذه المواجهة صورة يجسّد من خلالها فكرة البحث عن الذات وسط ما تعانيه من استلاب يهدّد هويتها ويفقدها أصالة الانتماء الوجودي. طرحت الرواية العراقية الحديثة هذه القضية في كثير من نماذجها، ووقفت على مناقشة وطرح ما يعانيه المهاجر المغترب من ضياع وتذبذب وعدم الشعور بالانتماء إلى موطنه الأصلي، ولا إلى بلد اللجوء، مما يخلق صراعاً مع ذاته بين المحافظة على هويته الأصلية وثقافته الأولى وبين الانفتاح على الهوية الأخرى وتقبلها، والانسجام معها (انظر: العطار، ٢٠١٣م: ١٥١).

قد سبق بعض الروائيين العرب في أعمالهم الروائية إلى طرح هذه المشكلة الحضارية مثل الطيب صالح الأديب السوداني في رواية موسم الهجرة إلى الشمال التي تعالج الصراع الحضاري من خلال علاقة الأنا بالآخر. ومنهم توفيق الحكيم في رواية عصفور من الشرق، ويحيى حقي في روايته قنديل أم هاشم، وسهيل إدريس في رواية الحي اللاتيني. ويمكن أن تندرج رواية «كم بدت السماء قريبة» للكاتبة العراقية بتول الخضيرى بشكلها السردي الحديث واحتوائها على الأنساق الاجتماعية والفكرية والثقافية، ضمن تلك الروايات التي تترجم الصراع الحضاري بين الأنا والآخر وتجسّد الضياع والتشظي للهوية بين الشخصيات المختلفة ثقافياً، وتبرز الكثير من التناقضات الثقافية والهوياتية نتيجة اختلاف الثقافتين بين الوالدين. إن التمثّلات الخاصة بالاختلاف الثقافي تأخذ صورها في هذه الرواية من تعددية الشخص، ومن تعدد انتماءاتهم، ومن الهوية التي تتشكل من هذا التباين والاختلاف؛ هذه الاختلافات تتجلى في صورة الأنا / العربي والآخر / الإنجليزي. كانت الطفلة / الابنة بوصفها

الشخصية الرئيسة في الرواية ضحية للصراع الحضاري والثقافي بين الوالدين إذ يسعى كل منهما فرض هيمنتها الثقافية على الآخر، فكان الصراع بينهما مستمراً على أبسط الأمور؛ لأنّ الأب عراقي متمسك ومتمرس خلف عاداته الشرقية، والأم إنجليزية متمسكة أيضاً بتقاليدها ولم تتنازل عنها قيد أنملة. هذه الصراعات والاختلافات في الواقع ترمز إلى صراع أكبر أي الصراع الحضاري والثقافي بين الشرق والغرب في أبعاد الحياة المختلفة منها الأبعاد السلوكية والقيمية. وبهذا التمهيد، تسعى هذه الدراسة إلى تتبّع معالم الصراع الحضاري وأزمة الهوية الثقافية بين شخصيات رواية «كم بدت السماء قريبة» بالاستناد إلى النقد الثقافي كمنهج للتحليل لكونه أحد أبرز المناهج المابعد حدائية، واعتماداً على الوسيط التأويلي الذي يعدّه النقد الثقافي الحجر الأساس في العملية النقدية. وأخيراً تحاول هذه الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

- أين تكمن مظاهر الصراع الحضاري بين الشخصيات في النصّ الروائي؟
- ما الدلالات الكامنة في رؤى السلوكية والقيمية للشخصيات الرئيسيات في الرواية؟

### خلفية البحث

هناك بعض دراسات تناولت الصراع الحضاري والنقد الثقافي وطبقتهما على عدد من الروايات أهمّها:

- بحث عامر جميل الصرايرة (٢٠١٣) في أطروحته عن «جدلية العلاقة بين الشرق والغرب في نماذج مختارة من الرواية العربية المعاصرة من عام ٢٠١١-٢٠٠١». حاولت هذه الدراسة من خلال النماذج الروائية المختارة أن تعيد جدلية العلاقة بين الشرق والغرب في ضوء أهمّ المستجدات التي تمثّلها المرحلة الجديدة المتمثلة بدخول الألفية الثالثة بما تدشّنه هذه المرحلة من اضطرابات مختلفة سواء أكان ذلك على الصعيد العربي أو على الصعيد العالمي.

تناولت جنات زراد (٢٠١٦) في دراستها المنشورة في العدد التاسع من مجلة إشكالات في اللغة والأدب «الصراع الحضاري في روايات عبدالرحمن منيف» وتوصّلت إلى أنّ منيف لم يفرد لهذه القضية عملاً واحداً خاصاً بل نجد صور العلاقة بين الغرب والشرق في كتاباته تقريباً بأكملها، وطرحها طرحاً حاداً دقيقاً.

درس إبراهيم خليل الشبلي (٢٠١٩) في دراسته «الصراع الحضاري في الرواية السورية بين ٢٠١٠—٢٠٠٠ نماذج روائية مختارة». هذه الدراسة نشرت في العدد الرابع من مجلة (Mesopotamian studies). عالجت هذه الدراسة موضوع الصراع بين الذات والآخر من زوايا متعددة، من ذلك الصراع في إطار السيطرة ومحاولة إخضاع الآخر بالقوة، والصراع الناشئ من الاختلاف في التقاليد الاجتماعية والمفاهيم بين الشرق والغرب.

هناك بحث للباحث أروي محمد ربيع (٢٠٢٠) المنشور في العدد الأول من مجلة اللغة الوظيفية معنون بـ «الصراع الحضاري بين الشرق والغرب في الرواية الإفريقية: رواية موسم الهجرة إلى الشمال أنموذجاً» توصل الباحث إلى أنّ هذه الرواية تتعلق بالتاريخ والاجتماع والعادات والتقاليد، وكثير من العلاقات المختلفة التي حاول الروائي من خلالها أن يجسّد الصراع الحضاري بين الغرب المستعمر والشرق المضطهد ويبين أثر ذلك على الجوانب الثقافية والنفسية والاجتماعية.

قام وصال ميمندي وزملاؤه (٢٠٢٢) بدراسة روائية «إنّه يحلم أو يلعب أو يموت لأحمد سعداوي بناء على نظرية فوكو». هذه الدراسة التي نشرت في العدد الأول من مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، اتخذت النقد الثقافي منهجاً لها، وتوصّلت إلى أنّ استخدام القوة بأنواعه الثلاثة المتمثلة في نظرية فوكو أدت إلى عاهات ثقافية تتمثل في ضعف إيديولوجيا والهجرة والانحطاط الخلفي الذي يتظاهر في السبّ والتوبيخ والشجار والعصيان والاستهزاء بمشاعر الآخرين.

بحث نبيل ياسف ونوال قرني (٢٠١٧) في دراسة معنونة بـ «الرواية الجزائرية

المعاصرة في ضوء النقد الثقافي: رواية حروف الضباب أنموذجاً» الأنساق الثقافية والعاطفية والسياسية والدينية، وتوصّلت الدراسة أخيراً إلى أنّ الروائي قد مزج بين القوالب الفنية البنائية للرواية وطبيعة الواقع الاجتماعية والحياتية المؤثرة في الذات. هناك بحوث أخرى لم نذكرها اخترازاً من تطويل الخلفية. وأما بالنسبة لرواية كم بدت السماء قريبة فلم يستطع الباحث بعد البحث، الحصول على دراسة عنها، ويمكن القول بأنّ هذه الدراسة هي الأولى من نوعها التي تتناول هذه الرواية بالنقد والإيضاح.

### المهاد النظري للبحث

#### أولاً: الرواية الحضارية وسماتها

تناولت الرواية الحديثة مشكلة الصراع الحضاري المتمثل بالعلاقة بين الأنا والآخر، وتعاملت مع هذا الموضوع تعاملاً أحادياً تكثر في أعمال أدبية متعددة، فنجد على سبيل التمثيل لا الحصر: رواية «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم (١٩٣٨)، «قنديل أم هاشم» ليحيى حقي (١٩٤٤)، «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح (١٩٦٦)، «سأهبك مدينة أخرى» لأحمد إبراهيم الفقيه (١٩٩٠)، «واحة الغروب» لبهاء طاهر (٢٠٠٧). هناك سمات شبه ثابتة في هذه الروايات الحضارية يمكن إجمالها فيما يلي:

١ - إنّ «البطل في كلّ هذه الروايات يسافر إلى بلدان أوروبا بغية التحصيل العلمي ومن أجل المعرفة» (العاني، ١٩٧٩م: ٤١) أو إنّ قدم إلى هذه الحواضر «طلباً للعلم أو الأدب أو الفن» (طرايبيشي، ١٢).  
٢ - ويتبع ذلك أن يكون أبطال هذه القصص والروايات «جميعاً وبلا استثناء هم من المثقفين» (المصدر نفسه: ١٢).

٣ - الذين كتبوا عن مشكلة الصراع الحضاري، «إنما انطلقوا من تجربة ذاتية» (خوري، ١٩٧٤م: ٢٩) وإن لم يقدّم بعضها بوساطة ضمير المتكلم في بعض الأحيان، فذلك من أجل أن لا يقوم القارئ «بإجراء عملية مماهاة أو توحيد في الهوية

(Identification) بين البطل والمؤلف» (طرايشي: ١٣).

٤ - هذه الروايات الحضارية التي تتبنى مشكلة الصراع الحضاري بأبعاده المختلفة «اختارت إطاراً مكانياً لها باريس ولندن» (المصدر نفسه: ١٤) باعتبار أنّ هاتين العاصمتين تمثّلتان بشكل شبه مطلق الحضارة الغربية التي استعمرت البلاد العربية والإسلامية لفترة معينة.

٥ - وأنّ «لقاء البطل الشرقي بالمرأة الأوروبية هو الوسيلة التي يكشف البطل من خلالها أبعاد الحضارة الأوروبية» (العاني، ١٩٧٩م: ٤١). هذه هي أهمّ السمات التي طغت على ما أصبح يعرف بالرواية الحضارية، وقبل أن نتقدّم في دراسة رواية (كم بدت السماء قريبة)، نوّد التأكيد على أنّ هذه الرواية لا تتقلّ شأنًا عن الروايات التي تناولت هذا الموضوع سواء كان ذلك من ناحية البناء الفني، أو من ناحية أهمية الأفكار التي حاولت الرواية أن تقدّمها.

#### ثانياً: منهجية النقد الثقافي

يعتبر النقد الثقافي (cultural criticis) نظرية منهجية جديدة في النقد الأدبي المعاصر في تحليل الخطاب. ظهرت هذه النظرية في الثمانينات من القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية مستفيدة من البنيوية اللسانية والأنثروبولوجيا، والتفكيكية ونقد ما بعد الحداثة (انظر: الغدامي، ٢٠٠١م: ٨٠). يشير أحد النقاد إلى أنّ مصطلح النقد الثقافي «لم يتبلور منهجياً إلا مع الناقد الأمريكي (فينسنت. ب. ليتش Vincent.B.Leitch) الذي أصدر كتاباً قيماً بعنوان: النقد الثقافي نظرية الأدب لما بعد الحداثة» (العيساني، ٢٠١٤م: ٤٦). يرى جرينبلات أنّ هذا المنهج يسعى مستنداً بالقراءة المتأنيّة المحلّلة إلى استعادة القيم الثقافية التي امتصّها النص الأدبي؛ لأنّ ذلك النصّ خلاف النصوص الأخرى يستطيع أن يتضمّن بداخله السياق الجديد، وبالتالي تكوين صورة للثقافة كنظام معقّد (علوش، ٢٠١٠م: ١١٠). لا يريد هذا المنهج النقدي مقارنة النصوص الأدبية من الناحية الجمالية فقط بل يتجاوز ذلك

إلى ربط النصوص الأدبية بالأيديولوجية والمؤثرات الأخرى مثل السياسة والاجتماع والاقتصاد... ليكشف أبعادها ويحلّلها بعد عملية تشريح النصّ، كما يحاول دراسة الأنساق الثقافية المتواجدة في النصّ معتبراً أنّ النصّ لا يصدر عن الفراغ، بل هو يتفاعل مع البيئة التي نشأ فيها. وبعبارة موجزة يحاول النقد الثقافي مقارنة النصوص الأدبية في ضوء مقاييس ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية لتعريف العيوب المتواجدة في الأنساق الثقافية والسلوكية. إذن يعدّ النقد الثقافي نقداً أيديولوجياً وفكرياً وعقائدياً.

إنّ النقد الثقافي «يعتمد على مصطلح النسق المضمّر، وهو نسق مركزي في إطار المقاربة الثقافية باعتبار أنّ كلّ ثقافة معينة تحمل في طياتها أنساقاً مهيمنة، فالنسق الجمالي والبلاغي في الأدب، يخفي أنساقاً ثقافية مضمرة. وهذا يعني أنّ النقد الثقافي يكشف أنساقاً متناقضة ومتصارعة، فيتضح بأنّ هناك نسقاً ظاهرياً يقول شيئاً ونسقاً مضمراً غير واع وغير معلن، يقول شيئاً آخر، وهذا المضمّر هو الذي يسمى بالنسق الثقافي، وغالباً ما يختفي النسق الثقافي وراء النسق الجمالي والأدبي» (رشاد السحيمي، لاتا: ١٨). من خلال الطرح السابق يتّضح لنا أنّ النقد الثقافي معنيّ بفحص النصّ من أجل استهداف ما يختزنه من ثقافة لها فاعليتها في المتلقي.

### ثالثاً: أزمة الهوية الثقافية بين الأنا / الآخر

نبدأ هذا القسم من المهام النظرية للدراسة بهذا السؤال: ما المقصود بالهوية الثقافية وجدليتها بين الأنا والآخر؟ رداً على هذا السؤال يمكن القول إنّ إشكالية الأنا والآخر أزمة معقّدة في ميدان البحوث الفكرية، و«القصّد من الأنا ذات الإنسان أو طبيعته الاجتماعية وماهيته، والقصّد من الآخر طبيعة أو ماهية تختلف عن الأنا من حيث الدين أو الجنس أو المعتقدات والمواقف والافكار أو الإسناد إلى المكان والزمان» (غافلي وآخرون، ١٤٣٣ هـ: ٢٤٠) والعلاقة بينهما غالباً ما تقوم على الاختلاف والتباين، وهما في صراع دائم ومستمرّ. وأمّا الهوية فتعدّ من أهمّ قضايا الفكر الغربي

والعربي المعاصر، وهي تعكس طبيعة العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر. فقد ظهر مفهوم الهوية لدى علماء الاجتماع خاصة عند أليكس ميكشيلي ( Alex Mucchieli) من أبرز المنظرين لها حيث أطلق لفظ الهوية على «نسق المعايير التي يعرف بها الفرد ويعرّف وينسحب ذلك على هوية الجماعة والمجتمع والثقافة» (ميكشيلي، ١٩٩٣م: ٢٤). ويرى البعض أنّها «جملة علامات وخصائص من أجناس مختلفة، تستقلّ بها الذات عن الآخر، وبغياب هذه العلامات والخصائص تغيب الذات وتذوب في الآخر، وبحضورها تحضر» (الودغيري، ٢٠٠٠م: ٥٠). يظهر ممّا سبق أنّ الهوية تعني الصفات والخصائص المميزة والمتكاملة والمتفاعلة التي تميّز الفرد عن الآخرين. وأما الهوية الثقافية (Cultural Identity) فظهرت خلال الخمسينات من القرن الماضي عند علماء النفس الاجتماعي في أمريكا لضمّها أقبليات مختلفة عرقياً وثقافياً. يرى الباحثون أنّ تحديد مفهوم الهوية الثقافية يحتاج إلى مقاربتين نسبيتين: المقاربة الأولى: تنطلق من مفهوم جوهري تتسم بالانغلاق والمثالية، فهي تؤمن بصفاء الثقافات وعزلتها واكتفاءها الذاتي، وبالتالي فإنّ كلّ حضارة هي متفردة بذاتها، ولها هويتها الخالدة التي تمتلك خصائص جوهرية، وبهذا تصبح الهوية الحضارية كينونة نهائية تشكّل جوهرًا استعلائياً (انظر: سعدي، ٢٠١٦م: ٧٢). ومن خلال المقاربة الأولى نفهم أنّ الهوية الثقافية لا تقبل الانفتاح والتفاعل مع الثقافات الأخرى، كما أنّها تتميّز بالمثالية والثبات؛ لأنّها تتكوّن من جوهر ثابت لا تقبل التطور. والمقاربة الثانية فهي تنطلق من مفهوم تاريخي مفتوح حيث ترتبط الهوية بتحوّلات الزمان والمكان وتفاعل مع الثقافات الأخرى. هذه المقاربة ترفض أطروحة الخصائص الجوهرية الثابتة للحضارات وتعتبر الهوية حصيلة تاريخ مستمر من التفاعل والتعدد» (انظر: المصدر نفسه، ٢٠١٦م: ٧٢). فالهوية الثقافية – بناء على هذه المقاربة – تقبل التجدد والاستمرارية، ولا تعرف الثبات، بل هي تخضع للتفاعل والتأثير والتأثر مع الهويات الثقافية الأخرى. يتّضح من خلال ما سبق أنّ جوهر الهوية الثقافية ثابت،



وأنها تقبل التجدد والاستمرار بحكم تفاعلها وتداخلها مع الهويات الثقافية. و«لا تكتمل الهوية الثقافية ولا تبرز خصوصيتها، ولا تغدو هوية ممثلة قادرة على مناقشة العالمية إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن (الجغرافية والتاريخ)، الدولة (التجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة) والأمة. وهي النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة» (الجابري، ١٩٩٨م: ٢٢-١٤). إذ إنّ الهوية الثقافية صورة مثالية متكوّنة على أيدي فئة محددة عن تاريخها وحضارتها بالنسبة لفئات أخرى، وهذه الصورة تستحضر بالضرورة فكرة المقارنة بالآخرين وإثبات وجوه التميّز عنهم. لذلك يستعمل مصطلح الأنا في الفكر الغربي للدلالة على الذات الغربية، في مقابل الآخر الذي يدلّ على الشرق. في حين تتخذ هذه المفاهيم صورة عكسية من طرف الشرق الذي يعتبر الغرب آخر بالنسبة له. يرى ادوارد سعيد في معالجته تلك العلاقة أنّه «إذا كان الشرق هو الآخر بالنسبة إلى الغرب فإنّ الغرب سيرصد كل السمات التي يختلف بها الشرق عن الغرب بوصفها سمات دونية وربما غير آدمية» (الرويلي، ٢٠٠٢م: ٢٢). والمجتمعات والحضارات الإنسانية حاولت دائماً أن تحافظ على قيمها ومبادئها الثقافية والفكرية، كما سعت المحافظة على عنصر هامّ يضمن استمراريتها أي عنصر الهوية. هناك ترابط وثيق بين الثقافة والهوية، وما من هوية إلا ولها خلفية ثقافية، وما من ثقافة بدون هوية. «إنّ الثقافة تخضع، إلى حدّ كبير، لصيرورات لا واعية، أما الهوية فتحيل على معيار انتماء واع» (كوش، ٢٠٠٧م: ١٤٨). تعدّ الرواية مجالاً خصباً لتمثيل الهوية ومكانتها؛ لأنّها تعتمد على البنية السردية التي تتطلّب ثنائية الأنا والآخر. هناك علاقة تلازمية بين الأنا والآخر؛ ذلك أنّ الأنا ضروري للآخر والآخر ضروري للأنا، لأننا نعيش في عالم لا يخصّنا وحده، بل هناك آخرون، ونحن معهم في حوار دائم ويكون لهم دور كبير في تحديد هويتنا. بناء على هذا، بإمكاننا أن نوضّح أنّ الهوية تتحدّد وتتعيّن من خلال الخروج من الذات إلى الآخر واللقاء معه. ثمة تداخل بين بناء الذات من جهة، وصراعها مع الآخر من جهة

أخرى، وهو ما يقصد به الأزمة. وقد ذهب ادوارد سعيد إلى أنّ «صراع الذات في تحديد هويتها، هو بحد ذاته أزمة» (مهيدات، ٢٠٠٧م: ٣٧) والمعنى أن الذات دائماً في صراع مع الآخر مما يولد أزمة حتمية.

### لمحة عن رواية «كم بدت السماء قريبة»

تحكي الرواية قصة طفلة / ابنة / فتاة مجهولة الاسم ولدت في العراق وعاشت في أسرة عراقية تكوّنت من أب عراقي يعمل في مجال إنتاج وتطوير المطيبات الغذائية، قد تزوّج في أيام دراسته في جامعة لندن بأُمّها الإنجليزية التي هاجرت معه لتعيش معه في بيت وسط مزرعة في الزعفرانية جنوب بغداد. سرعان ما تتحوّل تلك العلاقة الاتصالية بينهما (المتمثّلين في الحضارتين العربية والغربية) إلى صراع متأزم فور الزواج والانتقال من إنجلترا إلى العراق. يبدأ الصراع بين الأنا والآخر من بدايات الرواية؛ لأنّ الزوجة الإنجليزية أصبحت مفتونة بسحر الشرق من خلال كلمات زوجها، ثمّ يتغيّر موقفها من ذلك وتتخذ موقفاً معادياً. ظهرت تفاصيل ذلك الصراع في منهج تربية طفلتهما / ابنتهما؛ في معاشرتها مع صديقتها خدّوجة، ودراستها الموسيقى والرقص في المدرسة، وتذبذبها في التحدّث باللغتين العربية والإنجليزية، ثمّ تجاوز عن ذلك إلى حرية الزوجة في اختيار عشيق إنجليزي (ديفيد) لها متزوج هو الآخر. والعلاقة بين عنوان الرواية وموضوع الصراع الحضاري أخذت طبيعياً عن لعبة الأرجوحة التي كانت تلعبها البطلة بين نخلتين مع صديقتها خدّوجة، إذ تجمعها هذه اللعبة تتخفّف من سطوة توترات الشجار المستعر بين أبيها وأمّها وتنطلق في السماء وتحلقّ فيها حتّى تستنشق خط الأفق الذي تبدو السماء قريبة لها عنده.

وعلى الرغم من أنّ مظاهر الصراع الحضاري تبرز أساساً في الفصول الأولى للرواية، غير أنّ القارئ يلمح أنّها تتجسّد في الفصول الأخرى في سلوك الغرب إزاء الشرق خاصة عند الحديث عن حرب الخليج الفارسي واحتلال العراق على أيدي

الولايات المتحدة الأمريكية. تنتهي أحداث القسم الأول للرواية بإعلان الكاتبة بدء الحرب العراقية المفروضة على إيران. وفي القسم الثاني تتحدّث الكاتبة عن ضراوة الحرب العراقية \_ الإيرانية والبيانات العسكرية، وتدهور الظروف المعيشية. والرواية لا تدخل في تفاصيل الحرب، بل تكتفي بصور تقريرية مبثوثة في البيانات والتصريحات الرسمية والنشرات الإعلامية، وهي لا تعبّر في سردها عن تحيّر لجانب ضدّ آخر بشكل مباشر في هذه الحرب، بل نستشعر الرفض الضمني من خلال الوقائع المذاعة أو المروية. تستمرّ أحداث الرواية حتّى تتوقّف الحرب بين إيران والعراق، ثم يموت والدها، وتصاب أمها بسرطان الثدي، وترغم البطلة أن تسافر مع أمها إلى إنجلترا لمواصلة علاجها. تبدأ أحداث القسم الأخير من الرواية بالخريف في لندن، حيث تتواصل الأم فحوصاتها الطبية تحت رعاية طبيب مختص في سرطان الثدي. تشير الكاتبة في هذا القسم إلى حرب الخليج الفارسي واحتلال الكويت، ثم تتحدّث عن دخول القوات البرية الأمريكية إلى منطقة الخليج الفارسي وبدء الحرب على العراق. وأخيراً تستفحل خلايا السرطان وتنتشر في جسم الأمّ كلّها ويتخذ الأطباء قراراً باستخدام العلاج الكيماوي الذي ينتهي بموتها. هذه الرواية كتبت بأسلوب المخاطب، ووجهت الكاتبة الخطاب إلى أبيها وكأنها تستذكر تفاصيل حياته وعلاقته الأسرية وعمله وشؤونه الخاصة.

### مظاهر الصراع الحضاري في الرواية

#### ١- تشظي هوية البطلة وتذبذبها بين جدلية الأنا والآخر

لا شك أنّ اللغة تمثّل جوهر الثقافة، وهي عامل يبيّن الاختلاف بين مجتمع وآخر، وليست هي مجرد وسيلة للتواصل في المجتمع الإنساني، بل تتحوّل أحياناً إلى أداة لمعرفة الآخر والتحاوّر معه لمعرفة ثقافته وحضارته السائدة. و «إذا كانت اللغة هي الأداة الرئيسة للثقافة والاتصال الإنساني، فإنّ فقدانها فقدان للثقافة، وفقدان الثقافة يؤدي إلى فقدان الهوية» (أوبكر، د.ت: ٥٨). وفي رواية «كم بدت السماء قريبة» نرى

أنّ الصراع الثقافي بين الوالدين (الأب العراقي والأمّ الإنجليزية) قد أثرت بشكل واضح على لغة طفلتهما / ابنتهما، وجعلها تنذبذب بين اللغتين والثقافتين إذ أصبحت مرتبكة تتردد في اختيار الكلمات. لقد كانت طفلتهما / ابنتهما تدمج اللغتين العربية والإنجليزية معاً عندما تتحدّث مع والديها ممّا يؤدي إلى تدمر الأب الذي كان يطلب منها أن تتحدّث باللغة العربية فقط، ولا تخلط معها الإنجليزية. وأول مشهد أثار غضب الوالد واستيائه، حديثها مع أمّها التي تطلب منها أن تعطيها أداة الأكل قائلة: «مامي، أعطيني صحناً و spoon (الخضيري، ٢٠٠٩م: ٢١). وفي مشاهد كثيرة من الرواية يتكرّر الأمر، منها ما يأتي:

- بابا، لا تعلق الـ Door خلفك. / - هل سنفطر egg هذا الصباح؟ / - مامي، هل تعرفين كيف تعملين yellow كبة كالتّي ذقتها عند أهل خدوجة؟ (المصدر نفسه: ٢١).

والمتتبع لسرد الأحداث يرى أنّ السبب الرئيس في تذبذب الطفلة / الابنة اللغوي يرجع إلى الصراع الحضاري القائم بين الانا (التمثّل في الوالد) والآخر (التمثّل في الوالدة) إذ إنّ الوالدة تتعمّد في تحريض الطفلة / الابنة على استعمال المصطلحات الإنجليزية بدلاً من العربية وتنهرها إن تكلمت بغيرها، الأمر الذي يثير حفيظة الوالد مرّات عديدة، فيطلب منها أن تتركها تختلط بالذين سيعلمونها لغتها بالشكل الصحيح (أي أسرة خدوجة): «— ألم أطلب منك مراراً وتكراراً أن تعوديهما على قول «مع السلامة» بدلاً من bye bye و«مرحباً» بدلاً من Hi وماذا عن كلمة «شكراً» بدلاً من Thank you? — أضفت بإصرار: هذه الطفلة ستكون عرضة للإستهزاء. دعيتها تختلط بهم أكثر، فقد أن لها أن تعبّر عن نفسها بصورة مفهومة. ذلك أقلّ ما يمكن أن تقدّمه لها» (المصدر نفسه: ٢١). لقد شكّلت ظروف النشأة والتكوين التي عاشتها بطلة الرواية في خلق شخصية متشظية ومتذبذبة؛ لأنّ الآخر الإنكليزي (الأمّ) فرضت لابنتها لائحة من الأعمال الممنوعة، وحاولت أن تقتلعها من بيئتها وثقافتها العريبتين

الشرقيتين، وتربيتها على أساس المعايير الغربية. كانت الأم تمنعها عن الاختلاط بالريفيين في الزعفرانية وخاصة أسرة خدّوجة، وتحاول أن ترسلها إلى بغداد كي تدرس في مدرسة الموسيقى البالية، وإذا كانت الطفلة تتصرّف على هواها توّبّخها بهدف خلخلة العلاقات البنائية في هويتها واستلابها، كذا استخدمت استراتيجيات المكافأة في سبيل هدم المرجعيات الثقافية وواد الشعور بالانتماء وقطع الروابط الاجتماعية والشعورية التي تشدّ البطل إلى مجتمعه العربية عندما تنزل عليها العقاب الصارم كمنع الطعام عنها وحبسها في غرفتها وعدم السماح لها بالخروج عن البيت.

وعندما يحتجّ الأنا (الأب) على تصرّفات الآخر حيال الطفلة يبدأ النقاش والتشاجر بينهما، فتتسلّل الطفلة إلى ملاذها (خدّوجة) لتمارس طفولتها بشغف دون ضوابط. وفي هذه المواقف، تحاول الطفلة / الابنة أن يفتعل الموقف وتلعب دورين في استعمال اللغة: «تعلمتُ كيف أنسج كلماتي التي تناسبني، وأهمّ من هذا وذلك تعلمت متى استخدمها، يجب أن أتلافى خلطها عندما يكون مزاجك مرتبكاً مع أمي، ويجب أن أتعمد مزج اللغتين عندما أنوي زيارة صديقتي في المزرعة» (الخصيري: ٢٢). وفي مشاهد كثيرة من الرواية يلحظ القارئ أنّ الآخر (الوالدة الإنجليزية) يسعى إلى تهجين الهوية الثقافية للطفلة / الابنة بمحاولتها القضاء عليها في صورتها الثابتة والأصيلة عندما تلحّ أن تتعلّم ابنتها البيانو ورقص البالية، كما تلحّ دائماً على منعها من الاختلاط واللعب بأبناء الفقراء؛ لأنّها تنظر إليهم بنظرة دونية فتقول إنّ رؤوسهم مليئة بالقمل وطعامهم يحمل الأمراض. لكنّ الطفلة وجد منعتها وذاتها — بدعم من أبيها — مع خدّوجة ومع الصغار الأشقياء بألعابهم وشقاوتهم. وأكثر من ذلك، كان أبوها (باعتباره الأنا) يحرص كثيراً ألاّ تخالط لغتها العربية ولهجتها العراقية أيّ لكنة أجنبية أو إنجليزية، فلذلك يحزّضها للاختلاط بخدّوجة؛ لأنّها كانت حارسة للغتها العربية من سيطرة لغة الأم الإنكليزية التي تقتحم بمفرداتها اليومية اللغة الأصلية للبطلة. وتكون نتيجة المعركة هذه...: «أن أذهب إلى المدرسة كما تريد أمي وأن أوصل ترددي على

المزرعة كما يريد أبي فكان أن أدى خلافهما، إلى اختلاطي بالعالمين ما عدا البيت الذي كان بحدّ ذاته عالمين» (المصدر نفسه: ١٣) وهكذا ظلّ جدل الانتماء وقلق الهوية في هذه الرواية يتصارع في ذات واحدة تمثّلها شخصية البطلة، كما أصيبت بازواجية سلوكية مشتتة بين هويتين تحاول التأقلم بينهما في حين واحد.

وأحياناً كثيرة نرى أنّ ثقافة الآخر تتغلّب على الطفلة / الابنة، فتغيب وتذوب في الآخر بعاداته وتقاليده وثقافته على الرغم من أنّ جذورها كانت عربية، وحدث ذلك في صراع الوالدين حول ذهاب الطفلة إلى مدرسة الموسيقى البالية: «ذهابي إلى مدرسة الموسيقى البالية جعلك ترمي في وجهها انفعالات ما قبل الفطور. — الفتاة ستفسد. تجيبك من المطبخ: — لكنّ المدارس في هذه المنطقة الريفية فقيرة. أريد لابنتي أن تتعلّم اللغة والرقص والاختلاط. لا أسألك الكثير، لكنّهما قد يكلفانها غالباً يوماً ما. تأتي لتجلس إلى المائدة: — لن أدعها في مدرسة بدائية. يحمز وجهك، ربّما اختنقت بكسرة خبز. — ألا ترين يا امرأة أننا في الشرق، وتعلّمها هذا الذي تسمّينه فناً قد يضرّ بمستقبلها» (الخضيري، ٢٠٠٩م: ١٣—١٢) فيكشف تتبّع سرد الأحداث في الرواية أنّ الآخر استطاع حسم الأنا نهائياً فدخلت الطفلة / الابنة / الفتاة في تلك المدرسة وتعلّمت تحت رعاية (المدام) وهي أستاذة عراقية في فن الرقص المسرحي آتية من الاتحاد السوفيتي بعد إتمام دراستها الفنية. هذه التطورات والتغييرات في شخصية الطفلة، قد عبّر عنها بعض الباحثين بـ «الهجنة» (بابا، ٢٠٠٦م: ٢٩) التي تؤدّي إلى الانصهار والاندماج بين ثقافتين مختلفتين. ولا شك أنّ الصورة التي رسمتها الكاتبة للطفلة في الرواية تجسيد لصورة الجيل الجديد الممزّق بين ثقافتين، إذ تعكس الرواية شخصية الأب والثقافة العربية وتراثها، وتعكس شخصية الأم ضدّها وهما رمزان من رموز التقاء الحضارتين العربية والغربية، والطفلة بوصفها نموذج للجيل الجديد أصبحت تتخيّر في التفاعل معهما وهي لا تدري لمن تكون ولاؤها؟ هل تميل إلى الأب الذي يمثّل

الهوية الشرقية بكلّ صرامة، أم تميل إلى الأمّ التي تبدي ثقافة غربية مغايرة؟ لا يستبعد تتبّع سرد الأحداث أنّ الكاتبة تقصد في روايتها تصوير الالتقاء الحضاري وتشظّي الذات وأزمتهما الهويةاتية من خلال الشخصيتين الرئيسيتين (الوالدين وابنتهما) وتقديم المقابلات والتوازيات التي شغلت أكثر من نصف الرواية. وفي الجدول التالي ذكرنا أهمّ تلك المقابلات والموازيات والصراع الثقافي بين الولدين حتّى يرى القارئ مداها:

سلوك الأم وتقاليدها	سلوك الأب وتقاليد
هي تحبّه (جديلة الشعر) قصيراً وعملياً (ص ٧)	كلّ ما عندي هو جديلة تتدلى بين لوحي ظهري، حدّرتها أنت مراراً من أن تقصّها (ص ٧)
كم توّسّلت إليك في السابق أن تستخدم المناديل الورقية (ص ١٦)	تلمّ مناديلك القطنية البيضاء التي اعتدت على استعمالها خاصة في أيام إصابتك بالرشح (ص ١٦)
أمي تتناول Toast مع زبدة ومربي (ص ١٧)	أنت تمضغ قطعة خبز أسمر في انتظار وصول قيمر العرب بيد الفلاح (ص ١٧)
هي تغسل وجهها بقطعة من قماش مبللة بماء دون صابون ترعى بشرتها (ص ٦١)	وأنت تعصف في مناديلك خ، خ، خ. (ص ٦١)
وإشعالها شمعة كل يوم أحد (ص ٦٢)	لم ننثه من قصة إيقادك إصبع بخور كلّ جمعة (ص ٦٢)
تخفض هي فنجان قهوتها السريعة التحضير (ص ١٧)	عندما ترفع أنت قدح الشاي (ص ١٧)

<p>كانت أمي تجلس بتراخ على الأريكة السوداء في غرفتها... شعّ بياض بشرتها بحيث لفت انتباهي كأنّ وجهها وذراعيها وساقها قطع من تلك الدمى الصينية المستوردة ... (ص ١١)</p>	<p>صوتك العميق الذي يشبه بشرتك الداكنة - وقد سألك أحدهم في إحدى المناسبات إن كنت قد استعرتها من سوق الهنود (ص ٢٠)</p>
<p>«أنت تكره التدخين رافضاً أساساً فكرة النساء المدخنات، لذا جعلت غرفتك في الطرف الآخر من الممرّ لتبتعد قليلاً عن سحابات دخانها» (ص ١١)</p>	<p>تناولت مسبحتك في منتصف الفيلم. رحت تسقط حباتها ببطء شديد: طُق. بعد قليل طُق، ومن ثم طُق. هذه المرة كانت دورها قائلة: كفي! (ص ١٦)</p>
<p>أحدثت أمي فتحة في شعرها لتلقي نظرة من خلالها: — عذراً، لكنني لم أعتد على طريقتكم، استخدم طاس صغيرة تطوف فوق قدر كبيرة بماء لا يلبث أن يبرد بسرعة وأنتم جالسون على تلك التختة الخشبية المضحكة. ساغتسل بالطريقة التي تريحنني» (١٥-١٦)</p>	<p>أنت شطفت الحوض بماء مغلي ليزيل دهون الصحون فلاتعلق بشعرك، لكن هل خطر بالك أن شعرك يتساقط بكثرة أثناء الغسل وأنه قد يسد مجرى الماء؟! ثم ما هذه الطريقة المزعجة للاغتسال! ليست صحية ولا أخلاقية (١٥-١٦)</p>

ويمكن أن يتسائل القارئ أنّ هذه المقابلات السلوكية بين الزوجين ربّما تحدث في حياة كلّ من الزوجين، وهي لا تعدّ أمراً ثقافياً حضارياً. في الإجابة نقول: نعم إنّها تحدث في حياة كلّ منّا، غير أنّ سرد ذلك في روايةٍ شغلت أكثر من نصفها - كما سبق - يبدو رؤيةً سطحية، فأرادت الكاتبة أن تعرض لنا الاختلافات الثقافية مجسدة في



تلك العلاقة الثلاثية المعقّدة؛ لأنّ أحداث الرواية تكشف أنّ الثقة بين الأب والأمّ أصبحت منعدمة تولد الشعور بالصراع والخلاف، ويحاول كلّ منهما خاصة الأمّ بسط بدائل أخرى لما هو متأصل في الذات. ومن هنا ينشأ ردّ فعل عكسي للذات تحاول من خلاله مجابهة هذا الآخر. ولعلّ هذا يفسّر لنا الرؤية المضمرة في تفكير الخضيرى بأنّ الجيل الجديد يجب أن يلوذ إلى حضارته وثقافته في مواجهة الحضارات والثقافات الزائفة التي تهدف إلى تشويه الحضارة العربية الشرقية وضياعها. وخلال ذلك نرى الطفلة / الابنة التي كانت تقدّر موقفها من الحضارتين المتصارعتين، تنحاز إلى شخصية الأب وتساعد في تسمية المطيبات الغذائية بتسميات جديدة واكتساب الخبرة فيها، خاصة بعدما لاحظت أنّ أمّها لا تكنّ حبّاً لأبيها، وتخونه عندما أقامت علاقة غير شرعية من (ديفيد) الإنجليزية الجنسية.

لقد تمثّل الطفلة / الابنة في الرواية بطلّة مأزومة في كنف ثقافة أصلية مهزومة وأخرى خارجية مهيمنة ممّا طرح الاستعداد للتغيير والحدّات بصيغ مختلفة تضمنت التخلي عن جزء من الذات (أو التنكّر للذات) وأزمة هوية عميقة نلمح آثارها حيناً في هدم الروابط التي تشده إلى حضارته وثقافته أو إلى الماضي الجمعي الذي يشكل بحد ذاته تاريخ شعبه ومجتمعه. لذلك، نرى الكاتبة تذكر عن لسان البطلّة عندما يلحّ الأب في حريتها للذهاب إلى المزرعة ولعبها مع خدوجة، وتلحّ الأمّ في إرسالها إلى مدرسة الموسيقى البالية: «رغم تناقض الرغبات، لم تتمكّن أنت من منع أمّي من إرسالها إلى تلك المدرسة، وهي بالمقابل لم تفلح في إقناعك بعدم السماح لي بالنزول إلى المزرعة. خلافاً كما أدّى إلى اختلاطي بالعالمين» (المصدر نفسه، ٢٠٠٩م: ١٣) وهذا يعني أنّ البطلّة أصيبت بازدواجية الهوية بين هويتين عربية وغربية تولّد عنه ذات تأثّمة قلقة مشوشة في تفكيرها، أفقدها الكثير من الهدوء والاستقرار ممّا جعلتها تعيش في مفترق طرق بين هاتين الهويتين.

## ٢- شعور الأنا والآخر بالغرابة والضياع

لقد حملت رواية «كم بدت السماء قريبة» بذور الاغتراب والضياع في بنيتها الداخلية فجاءت تعبيراً عن غربة أبطال الرواية خاصة البطلة والديها. فالطفلة / الابنة بوصفها إحدى أبطال الرواية، أصبحت مغتربة، وبدأ اغترابها بعد موت صديقتها (خدوجة) بمرض البلهارزيا، ثم إصابة والدها بمضاعفات الجلطة القلبية التي توفي إثرها. كانت وفاة الأب مفاجأة كبيرة بالنسبة للبطلة التي أصبحت فتاة؛ لأنّه كان ملاذاً لها أمام عواصف الأحداث، فسببت ارتباكها وحرمانها من محبته وأدخلتها في دوامة من الغربة الممضية إلى حد أقامت علاقة محزّمة مع الفنّان (سليم). تتضاعف غربة البطلة عندما تجبر أن ترحل إلى لندن بمرافقة أمها المريضة لمعالجة سرطان الثدي، فهناك تستحكم قبضات الاغتراب؛ لأنّ أمها المصابة بالسرطان لم تقدر أن تأخذ بيد ابنتها، ولم تقم بينهما علاقة حميمة وكيف يمكن لها، وهي الباعثة الرئيسة لاغترابها قبل وفاة الأب. ولم يستطع الأطباء علاج الأمّ والتخفيف من معاناة الفتاة، فيزيد اغترابها بجانب نوع من الضياع وعدم الشعور بالانتماء للذين يظهران من خطابها في لندن قائلة: «لست من هنا ولا من هناك، هذه هي المشكلة» (الخضيري: ١٦٣). وفي لندن تتدخل مرة أخرى في علاقة محزّمة مع (آرنو) الآخر الغربي (الفرنسي)، فتحمل منه، غير أنّها لم تكن أليّة مشاعر له ترغمها على الاحتفاظ بجنينها منه والعيش معه، فلذلك تقرّر أن تجهض الحمل حتّى ينقطع حبل العلاقة بينها وبين الآخر. وكأنّ الكاتبة بهذه المشاهد الروائية تؤكد على استحالة اللقاء بين الحضارتين الغربية والشرقية، وإن حدث بينهما لقاء فمصيره هو الفشل؛ لأنّ المشاعر والأحاسيس وحدها لا تكفي لتوحيد أبناء الشعوب مختلفة الأصل والعرق والمنشأ.

وأما الأمّ (الآخر) فلم تستطع الانصهار في المجتمع العراقي الشرقي، ولم تذب في الأنا الشرقي رغم محاولات زوجها للاندماج معه، بل بقيت في حالة الضياع والغربة في العراق. ولعلّ المكان المعادي الذي تحدّث عنه غالب هلسا هو المكان الاغترابي

الذي يكشف أثر المكان في التكوين النفسي للشخصية (انظر: هلسا، ١٩٨١م: ٢٢٦) وهو ما نلمسه على لسان الأم التي تحوّل الزعفرانية لديها إلى سجن ضيق تحت ضغط الشعور بالوحدة، فنكاد نسمع صوتها وهي تعبّر عن شكواها بين ضيوفها وتتذمّر من قذارة الطريق الذي يشقّ المزرعة، وانقطاع الماء والكهرباء. ثمّ تصف زوجها بطباع عصبي يجعل المكان يضيق بها، وأنها لو رغبت في السباحة فأحوال النهر ستسّمم بشرتها، والحمام الشمسي محرّم في هذه الأنحاء (الخضيري: ٢٩-٢٧). ومن ثمّ تشعر بأنّها لا تملك قدرة على تغيير الواقع، وكلّ ذلك قد خلق حالة من الاغتراب عن الخارج أبدتها لصديقتها (ميلي): «ليس لدي خيار، أنت تعرفين القصة» (المصدر نفسه: ٢٨). وتصيب الأم بالكآبة والإخفاق في لندن وتبوح بذلك في بعض لحظات الهذيان، منها الزواج وعلاقتها غير الشرعية والعودة إلى إنكلترا وعدم مقدرتها من الانتماء إليه من جديد: «...لم أعد أنتمي إلى هنا، عندما غادرت إنكلترا، حينها قررت أن أحاول الانتماء إلى الشرق، لكن لم أنجح في انتمائي إلى الشرق رغم كل محاولاتني. الآن وقد عدت ثانية، أجدني لا أستطيع الانتماء من جديد إلى موطني الأصلي... نحن لا ننتمي إلا لظلّ أجسادنا التي ترافقنا، ما دمنا أحياء» (المصدر نفسه: ١٩٩-١٦٧).

وأما الأب فكان أقلّ اغتراباً بالنسبة لبقية الشخصيات الروائية. عانى هو أيضاً من الاغتراب عندما كان طالباً في إنكلترا، ثمّ اشتدّ اغترابه في بغداد، بعكس الأم التي جرّبت الاغتراب في موطنه، ثمّ هاجرت إلى العراق بغية التخلّص من اغترابها هناك. فلذلك نراه يكشف عن رؤية صارمة مقابل اقتراح الهجرة وترك بلده قائلاً: «لكن البلد بلدي والخير هنا في هذه الأرض. لأريد أن يصيبنا ضياع حضاري كالذي أحسست به خلال سنوات دراستي. فكرة العزلة ثانية عن الوطن تخيفني، أقولها لك بكل صراحة» (المصدر نفسه: ٨١-٨٠).

### ٣- نسق الفروق الطبقيّة بين حضارية الآخر وبدائية الأنا

تقف رواية «كم بدت السماء قريبة» في كثير من مشاهدتها الروائية أمام الصراع الطبقي. والصراع الذي تبرزه الكاتبة ليس صراعاً بين الطبقة المالكة الحاكمة وطبقة العاملين الكادحين المحكومة، إنما بين الأنا العراقي (البورجوازي) والآخر الإنجليزي (الارستقراطي). تمثّل خدّوجة (صديقة البطلة) وأسررتها الطبقة البرجوازية في النصّ، وطالما نرى أمّها تحاول أن ترسم خطأً أحمر لعلاقات ابنتها مع خدّوجة وأسررتها، تلك الطفلة الريفية المعدّمة التي تسمّيها أمّها (القدرة وناقلة القمل) كما نلاحظ ذلك في المشهد التالي من الرواية:

— «... حبيّتها. Hi مامي. أجابت بإنكليزية بيضاء كبشرتها: Hi أين كنت؟ أحببتها، وهي متوقّعة الردّ: في المزرعة. ثارت كالمعتاد، انقلب سهواً إناء البندق بركلة من قدمها. تقصدين مع الفتاة القدرة. ألم أحذرك من الاختلاط بحاملة البراغيث تلك؟ لكنّها صديقتي يا مامي. نهرتني بشدّة: No! ليست صديقتك، فهي ستنقل لك الأمراض. ثمّ سألت وهي تلمّ البندق المتناثر: - هل أكلت شيئاً عندهم؟ أجبت بصوت منخفض: - فقط قطعة خبز وقليلاً من الجبن. انفعلت: - My God! ألا ترين بنفسك كيف تستخدم أمّها مخلّفات البقر كي تشعل ناراً تلقي فيها العجين. أما رأيت عدد الذباب فوق كتل الجبن الذي يتركونه مكشوفاً بعد صناعته بيدين قذرتين؟» (الخضيري، ٢٠٠٩م: ١١-١٢) وهي صورة واضحة نلمس منها الرؤية الطبقيّة، وتهوين الأمّ وازدراءها للعلاقة الحميمة التي نمت بين الطفلة وصديقتها (خدّوجة) بسبب طبقتها الاجتماعيّة الضئيلة فقط.

والآخر الإنجليزي (الأمّ) يمثّل الطبقة الأرستقراطية التي تملك المال والعلم ووسائل الحضارة الحديثة. لكنّ الطفلة / الابنة تنتصر هنا للأنا وتشعر بأنّ سعادتها وحرّيّتها لا تتحقّقان إلا في صداقتها لخدّوجة وأسررتها الفقيرة. لذلك نرى الكاتبة بوصفها بطلة الرواية لا تقبل الفكرة الأرستقراطية لأمّها، فترى أنّ أسرة خدّوجة أصيلة

تجري مشاعر الحبّ فيها وتسود بينهم علاقات حميمة، هم يأكلون ويعملون معاً، وحياتهم تتميّز ببساطتها ونقاؤها، ولا تعرف الكذب وزيف المشاعر. وجدير بالذكر بأنّ البطلة تعترف بأنّ أسرتها رغم تفكير الأمّ بأرستقراطيّتها تخلو من الحبّ ودفء العلاقات النبيلة.

ويظهر لنا من خلال قراءة الرواية أنّ الكاتبة ترسم لنا نظرة دونية للآخر بالنسبة للأنا وتستند رؤيته للأنا في حالة التلقي السلبي على الإعلاء من شأن نفسه وتهجين ثقافة الأنا بتحقيقه وتبخيس أفعاله. ولتتمس ذلك من خلال مقاطع سردية كثيرة مثل المشهد الذي أخبرت الأمّ ضيوفها ساعة بدء الدعوة: «تخبر الأمّ ضيوفها بأنّ الدعوة تبدأ في تمام الساعة، والأب يدعو أصحابه في العمل ويقول إنّ الجلسة تبدأ من الساعة وما بعدها. أمي تتذمر من عدم دقة المواعيد الشرقية» (المصدر نفسه: ٣٦) وترتبط هذه الرؤية بتبخيس الأنا بوصفه «عملية تبدأ من النظرة للدونية.. عبر عملية تخريب القيم.. أو من خلال تدمير عملية التقدير التي تضفيها الجماعة على فعاليتها وأنشطتها» (ميكشيللي، ١٩٩٣م: ٢٤) إذ تصبح وجبة العشاء فرجة بيدي من خلالها الآخر الغربي رأيه في العرب وأنهم دائماً متأخرون كما هي حالهم في عدم الانضباط في مواعيدهم لتناول العشاء. كما نراها تبدي انزعاجها عن أسلوب الحياة الناشئ عن بساطته في الزعفرانية، فتتخذ مواقف دونية بالنسبة إليها، وتعتبها بدلالات الحقد والكراهية مثل: «سُمّت الزعفرانية وبدائية أهلها» (المصدر نفسه: ١٣). هذه المواقف إن تدلّ على شيء فإنّما تدلّ فعلاً على النظرة الدونية للآخر الناشئة عن الفروق الطبقيّة بينه وبين الأنا.

#### ٤- الانحلال الأخلاقي للآخر واستحالة تفاعل الأنا معه

من المحاور الهامّة التي تركز عليها الخضير كنموذج للصراع الحضاري بين الشخصيتين الرئيسيتين هو الانحلال الأخلاقي للآخر واستحالة اللقاء بينه وبين الأنا

الشرقي. والواقع أنّ الميزة الأساسية التي تميّز بها المجتمعات الشرقية أنّ الأب مسؤول عن الأسرة، ليس عن سلوكه الفردية فحسب، بل عن تصرّفات أعضاء الأسرة كلّهم خاصّة فيما يتعلّق بالمعتقدات والتقاليد والعادات والشرف حيث تسود فيها القيم الدينية والعائلية الصارمة. إنّ خروج الزوجة من البيت في كثير من المجتمعات الشرقية غالباً ما يتمّ بإذن الزوج، وقد تحوّلت هذه المسألة إلى إحدى نقاط الصراع الحضاري بين الأنا والآخر في رواية الخضيرى؛ لأنّ الآخر يعمل كيفما شاء، في حين أنّ الأنا لا يقبل ذلك ويتّخذ موقفاً صارماً وبعد ذلك السلوك نموذجاً للانحلال القيمي. فذلك نرى الأب يعرب عن سخطه إزاء تصرّفات زوجته وخروجها من البيت دون إذنه، ويخاطب طفلته / ابنته قائلاً: «من ناحية أخرى لا أستطيع السماح لها بأن تسرح وتمرح بين الأجانب كما يحلو لها. تنتقل بين بغداد والبصرة، تقول لي إنها ذاهبة، لتخبرني فقط، لا لتأخذ رأيي. لن أسمح لأحد أن يهزأ منّي» (المصدر نفسه: ٨٠). وقد يكون عدم الاتفاق على العناصر الثقافية من عادات وتقاليد وقيم ومعايير أو غيرها من أنماط السلوك سبباً للصراع الثقافي بين الأفراد (ر.ك: رشوان، ٢٠٠٦م: ١٧٠) كان رقص الأمّ مع ديفيد وشرب الخمر معه نموذجاً آخر للانحلال القيمي للآخر، وقد حدث ذلك رغم استياء الأب وإنّ تغاضى عنه في المرة الأولى: «يا مدام حاولي فهم موقفي. أمس تركتك تشربين كما يحلو لك، وتغاضيت عن رقصك المائع مع ذلك الأجنبي داوود أمام أصدقائي وزوجاتهم ولا أعترض على مخالطتك أصدقاءك متى شئت» (الخضيرى: ٤٢) غير أنّه لا يستطيع التغاضي عن أعمال الآخر (زوجته) خاصة العلاقات والأعمال التي كانت تقوم بها مع رجل من جنسها، فتتّجه العلاقة بينهما إثر ذلك نحو الالتباس والرفض، فالآخر لا يحترم حدود ثقافة الأنا وتقاليدِه ويعمل على وفق تطلعاته، وتتصرف بوحي من جذورها الإنجليزية فتسهر خارج البيت مع أصدقائها البريطانيين وتعود في ساعة متأخرة، فيحاول الأب هنا أن يحدّ من تلك التصرفات وفقاً لتقاليدِه وثقافته العامة، غير أنّه لا يقدر نهائياً أن يحسم القضية وكأنّ الآخر يتغلّب على

الأنا: \_ «أحب السهر مع مجموعة الأجنبي متى شئت دون أن تقسد عليّ ذلك عندما أعود. لست سندرلاً لكي أرجع قبل الثانية عشرة» (المصدر نفسه: ٧٧). والنموذج الآخر هو تبادل القبلات بين الآخر وديفيد الذي كان الأب يصرّ على تسميته داوود: «فكان يتبادل قبل التحية مع أمي عادة، فأرى عقدة تنبت بين حاجبيك» (المصدر نفسه: ٢٦). وهو أمر يتعارض مع كلّ القيم والمبادئ التي تربّى عليها العربي. وقد يكون الاختلاف هنا من ناحية القيم الأخلاقية والثقافية ومدلولاتها الاجتماعية والتوجهات الأيديولوجية واختلاف العادات والتقاليد، فيقول صاموئيل هانتغتون بهذا الصدد «إنّ أكثر الصراعات انتشاراً وأهمية وخطورة لن يكون بين طبقات اجتماعية غنية وفقيرة، أو جماعات أخرى محددة على أسس اقتصادية، ولكن بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة» (هانتغتون، ١٩٨٨م: ٦٤).

ويزداد الخلاف بين الزوجين، فتصرّ الزوجة للانفصال عن الأنا فيرفض ذلك مراعيّاً لمصالح ابنته ولا يرضى بالانفصال. كان الصراع الحضاري ينتهي في كثير من الأحيان بانزهاض الثقافة العربية الإسلامية، وتجلّى ذلك في ما حدث للأنا إذ ينهزم أمام طلب الآخر بالانفصال ويطلب منها البقاء عنده وأن تمارس علاقاتها مع عشيقها بشرط ألا تصرّ بسمعة الطفلة. وقد عبّرت عنها (خيانة الآخر) الخضيرى في بعض مقاطع روايتها وصوّرت الخيانة الزوجية من طرف الزوجة الإنجليزية وانسياقها وراء رغباتها وشهواتها، وتحطيم الأنموذج الأخلاقي التي دفعت بها نحو ممارسة علاقة غير شرعية مع شابّ إنجليزي باسم ديفيد، وهو إعلان الثورة والعصيان وترك الزوج والهروب منه، فيغدو الجنس كاشفاً لما يعتور المجتمعين من اختلافات في العادات والتقاليد والدين والثقافة حتّى في التابوهات التي ينظر إليها المجتمع بشيء من القدسية، وما يميز رؤية بتول الخضيرى لخيانة المرأة زوجها أنها جعلت الزوجة البريطانية من رجل عراقي محترم مثقف منفتح حضارياً، حريص على إرضائها، متفهم لاختلافها عن مبادئ وقيم مجتمعه، تمارس الخطيئة مع رجل من ذات جنسها بريطاني الهوية والجنسية،

فمعه شعرت بلذتها وشهوتها (انظر: الخضير: ٥٢ و ٧٧). وهكذا أعطت الرواية لخطيئة الخيانة دلالة حضارية اجتماعية، كما أعطتها دلالة سياسية، من جهة أنّ أحداث الرواية قد تمّت إبان الحرب العراقية على إيران واحتلال العراق علي أيدي الأمريكيين، فهي تدين التّدخل الغربي في بلادها، وتقوم بتشويه الصورة الغربية، فتشبهها بمرض السرطان الذي يسري في جسد الأمّ، وهكذا الاستعمار فهو مثل السرطان يعمّ جميع أعضاء الجسد إن أصاب منطقة فيه. وأخيراً تلاشت كلّ نقاط التجاذب بينهما في فضاء الاختلاف والنفور المطلق وكأنّه هو الآخر يرفض الارتباط بهذا المجتمع المتخلف. وهذا الرفض المتبادل يشير إلى الهوة الكبيرة بين الذات والآخر، وإلى انعدام فرص التواصل أو التصالح بينهما: «... - يا رجل، أنا أريد الانفصال النهائي. لا أريد أفضالك، ولا تذكرك لي بأنك سيد الدار، سأكتفي بعلمي وأصدقائي وابنتي. ألا تفهم أن حياتي انفصلت عن حياتك؟ نحن لا نعيش، أو نتعايش حتى، فقط نحيا معاً في بيت واحد» (المصدر نفسه: ٧٧). والخلاصة أنّ اختلاف القيم والتباين الاجتماعي بين العالمين الشرقي والغربي في بنية المجتمعات هو السبب في فشل العلاقة بين الأنا والآخر، إذ تنطلق سلوكياتها من بنيتها الفكرية والسايكولوجية الإيديولوجية وبيئتها السوسولوجية فعند ارتباطها بالرجل الشرقي لا تستطيع التخلي من اختلاف محيطها بعاداته وتقاليده وبكلّ فضاءاته الرحبة مقابل ضيق الأفق الشرقي الذي يحيط بالعلاقات الإنسانية ويقيد حدود المرأة، فالذات هنا متأرجحة وتجمع بين هويتها الأمّ بحكم النسب والثقافة والانتماء والعادات والقيم، وهوية الآخر بحكم الاتصال والاختلاط والمعاشة وهذا هو سبب أزمته.

### نتائج البحث

عبّرت بتول الخضير في روايتها كم بدت السماء قريبة عن الصراع الحضاري في إطار إشكالية العلاقة مع الآخر وسلّطت الضوء على ما لاقته البطلة والشخصيتان



الرئيستان (الأب والأم) من معاناة وأزمة هوياتية، وصوّرت الاختلاف الكبير بين المفاهيم والقيم والتقاليد الاجتماعية بين المجتمعين العراقي والإنجليزي. وبعد دراسة هذه الاختلافات توصلنا إلى بعض نتائج أهمها:

— عالجت رواية كم بدت السماء قريبة لبتول الخضيرى موضوع الصراع الحضاري بين الأنا والآخر من زوايا متعددة، من ذلك الصراع في إطار السيطرة ومحاولة إخضاع الأنا تحت سلطة ثقافة الآخر، وكذلك الصراع الناشئ من الاختلاف في التقاليد الاجتماعية والمفاهيم بين مجتمع الأنا والآخر. إذ أسهم اختلاف الفضاء الاجتماعي والثقافي في تغيير المشاعر والانطباعات وردود أفعال الشخصيات الممثلة للأنا والآخر إزاء الواقع الذي تعيش في ظلّه.

— أصيبت شخصية البطلة باغتراب وجودي في وطنها جزاء التقابل السلوكي بين الوالدين الذين يمثلان الحضارتين الغربية والشرقية، فلم تقدر أن تنصهر تماماً في إحدى الحضارتين فأصيبت بأزمة هوياتية تجلّت في علاقاتها الاجتماعية خاصة في العلاقات غير الشرعية بعد ما هاجرت مع أمّها إلى لندن.

— لم ينصهر الآخر في الثقافة العربية الشرقية بل اتخذ ردود فعل عدائية مقابل الأنا الشرقي، وحاول طمس الثقافة الشرقية من حياتها وحياء طفلتها، فنجح إلى حدّ ما، وأخيراً أثبتت الدراسة أنّ العلاقة الاتصالية بين الأنا والآخر أصبحت انفصالية، فعاد الآخر إلى موطنه غير أنه شعر هناك أيضاً باغتراب وجودي أمام دمجّه معه مرة أخرى.

### المصادر

— أبوبكر، أمين محمد (د.ت) التعددية الثقافية وأثرها في المهارات الأساسية للغة العربية والهوية الثقافية في ضوء المدخل الثقافي: المدارس الثانوية الدولية في مصر نموذجاً، كلية التربية، جامعة ٦ أكتوبر.

— بابا، هومي ك (٢٠٠٦) ترجمة: نادر ديب، ط ١، المغرب: المركز الثقافي العربي.

- الجابري، محمد عابد (١٩٩٨) العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٢٨، مركز دراسات الوحدة الإسلامية، فبراير، بيروت، صص ٢٢-١٤.
- خوري، إلياس (١٩٧٤) تجربة البحث عن أفق، د.ط، بيروت.
- رشاد السحيمي، ملحّة بنت معلث (لاتا) نظرية النقد الثقافي ما لها وما عليها، مجلة بحوث كلية الآداب، صص ٣٣-١.
- رشوان، حسين عبدالحميد (٢٠٠٦) الثقافة — دراسة في علم الاجتماع الثقافي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- الروبلي، ميجان (٢٠٠٢) دليل الناقد الأدبي، ط ٣، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- سعدي، محمد (٢٠١٦) السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمستقبل، إشراف و تيسق: البشير ربوح، ط ١، بيروت: منشورات صفاف.
- طرايشي، جورج (١٩٩٧) رجولة وأثوثة، بيروت: دار الطليعة.
- العاني، شجاع مسلم (١٩٧٩) الرواية العربية والحضارة الأوروبية، بغداد: الموسوعة الصغيرة.
- العطار، ميثاق حسن (٢٠١٣) الرؤية الاجتماعية وتطورها في الرواية العراقية في المنفى، أطروحة الدكتوراه، كلية الآداب، جامعة القادسية.
- علوش، سعيد (٢٠١٠) نقد ثقافي.. أم حداثة سلفية؟ ط ١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- العيساني، عائشة سيف خميس (٢٠١٤) الأنساق الثقافية في أدب الإمارات المعاصر، مكتب سمو الشيخ ماجد محمد بن راشد آل مكتوم.
- غافلي، مصطفى؛ زينة عرفت بور؛ معصومه نعمتي قزويني (١٤٤٣) تجليات الأنا والآخر في رواية المصاييح الزرق لحنّا مينة، مجلة أفاق الحضارة الإسلامية، السنة ٢٤، العدد ٢، صص ٢٧٨-٢٣٥.

- الغدامي، عبدالله (٢٠٠١) النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط ٢، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- كوش، دنيس (٢٠٠٧) مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: منير السعيداني، ط ١، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- مهيدات، نهال (٢٠٠٧) الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، ط ١، عمان: عالم الكتب الحديث للنشر.
- ميكشيللي، الهوية (١٩٩٣) الهوية: ترجمة: علي وطفة، ط ١، دمشق: تنفيذ دار الوسيم للخدمات الطباعية.
- الودغيري، عبدعلي (٢٠٠٠) اللغة والدين والهوية، المغرب: الدار البيضاء.
- هلسا، غالب (١٩٨١) المكان في الرواية العربية، فصل من كتابك الرواية واقع وأفاق، بيروت: دار ابن رشد.
- هنتغتون، صاموئيل (١٩٨٨) صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، القاهرة.

### References

- Abu Bakr, Amin Mohammad (D.T) Cultural pluralism and its impact on the basic skills of the Arabic language and cultural identity in the light of the cultural approach: International secondary schools in Egypt as a model, Faculty of Education, 6th of October University.
- Baba, Homi K (2006) translated by: Thaeer Dib, 1st Edition, Morocco: The Arab Cultural Center.
- Al-Jabri, Mohammad Abed (1998) Globalization and Cultural Identity, Journal of the Arab Future, Issue 228, Center for Islamic Unity Studies, February, Beirut, pp. 22-14.
- Khouri, Elias (1974) The Experience of Searching for a

Horizon, Dr., Beirut.

- Rashad Al-Suhaimi, Melha Bent Maalth (no date) The Theory of Cultural Criticism: What It Has and What It Does, Research Journal of the College of Arts, pp. 1-33.

- Rashvan, Hosein Abdel Hamid (2006) Culture - A Study in Cultural Sociology, Alexandria: institution shabab al- jamea.

- Al-Rowaili, Mijan (2002) The Literary Critic's Guide, 3rd Edition, Beirut: The Arab Cultural Center.

- Sadi, Mohammad (2016) The Question of Identity in Establishment, Criticism and the Future, Supervision and Coordination: Al-Bashir Rabouh, 1st Edition, Beirut: Saffaf Publications.

- Tarabishi, George (1997) Masculinity and Femininity, Beirut: Dar Al-Tali'a.

- Al-Ani, Shuja Moslim (1979) The Arabic Novel and European Civilization, Baghdad: The Small Encyclopedia.

- Al-Attar, Misaq Hasan (2013) The Social Vision and Its Development in the Iraqi Novel in Exile, PhD thesis, College of Arts, University of Al-Qadisiyah.

- Alloush, Saeid (2010) Cultural criticism... or Salafi modernity? 1st Edition, Cairo: The Supreme Council of Culture.

- Al-Isani, Aisha Seif Khamis (2014) Cultural Patterns in Contemporary Emirates Literature, Office of His Highness Sheikh Majid Mohammed bin Rashid Al Maktoum.

- Ghafeli, Mostafa; Zinat Araftpour; masoumeh Nemati Qazwini (1443) Manifestations of the Ego and the Other in the Novel of the Blue Lamps by Hanna Mina, Horizons of Islamic Civilization Magazine, Year 24, Issue 2, pp. 278-235.

- Al-Ghazami, Abdollah (2001) Cultural Criticism: A Reading

of Arab Cultural Forms, 2nd Edition, Beirut: The Arab Cultural Center.

- Koch, Dennis (2007) The concept of culture in the social sciences, translated by: Munir Al-Saedani, 1st edition, Beirut: Center for Arab Unity Studies.

- Mohaidat, Nihal (2007) The Other in the Arab Feminist Novel in the Discourse of Woman, Body and Culture, 1st Edition, Amman: The Modern World of Books for Publishing.

- Michcelli, The Identity (1993) The Identity: Translated by: Ali Watfa, 1st Edition, Damascus: Implementation of Al-Waseem House for Printing Services.

- Wadghiri, Abdel Ali (2000) Language, Religion and Identity, Morocco: Casablanca.

- Halsal, Ghalib (1981) The Place in the Arabic Novel, a chapter from your book The Novel is Reality and Horizons, Beirut: Ibn Rushd House.

- Huntington, Samuel, 1988 AD: 64, The Clash of Civilizations Remaking the World Order, translated by: Talaat Al-Shayeb, Cairo

### Abstract

## Civilizational Conflict and the Cultural Identity Crisis As Represented in the Novel “How Close the Sky Seemed” by the Iraqi Writer Batoul Al-Khudairi

Jamal Talebi Gharegheshlaghi\*

The civilizational conflict between Western and Eastern cultures represents an important problem that has caused an identity crisis in many human societies, especially Eastern ones. Some Arab novelists were able to embody this bitter conflict between the western and eastern civilizations, and it is the subject of the relationship between the ego and the other. Although a group of Arab writers had previously raised this civilized problem in their writings, the novel “How Close the Sky Seemed” by the Iraqi writer Batoul Al-Khudairi is one of the creations that presented this issue extensively, as it dealt with it with great accuracy and depth in its civilized (intellectual) level. By clarifying the material, social and psychological aspects of the behavior of the characters in the novel, and began to unveil the fundamental conflict between the two civilizations. This research paper, by relying on the descriptive and analytical approach, aims to shed light on the issue of civilization conflict in that novel through some text samples. In this novel, the father represents a symbol of Arab-Islamic civilization, and the mother represents a symbol of Western civilization, and their daughter was confused about this conflict and had an identity crisis that caused her behavioral fluctuation in customs and traditions, so she does not know who her loyalty is too! Among the most important findings of the study is that the relationship between the ego and the other did not result in this novel in the cross-fertilization and blending of the two civilizations, but rather produced a confused and lost character represented in their daughter, so that she lost her identity, and could not determine her affiliation accurately, but continued to live on fluctuation in her behavior as she was unable to determine her loyalty to each of the two civilizations.

**Keywords:** Contemporary Novel, Civilization Conflict, Identity, Batoul Al-Khudairi, Novel How Close the Sky seemed.

\* Assistant Professor of Arabic Language and Literature, Farhangian University, tehran  
j.talebi@cfu.ac.ir